من ثمرات الاقلام

هذا الدين

منهج للبشر

هناك حقيقة أولية عن طبيعة هذا الدين ، وطريقة عمله في حياة البشر .. حقيقة أولية بسيطة ... ولكنها مع بساطتها ، كثيرا ما تنسى ، أو لا تدرك ابتداء . فينشأ عن نسيانها أو عدم ادراكها خطأ جسيم في النظر الى هذا الدين: حقيقته الذاتية وواقعه التاريخي . حاضره ومستقبله كذلك !

ان البعض ينتظر من هذا الدين ــ ما دام منزلا من عند الله ــ أن يعمل في حياة البشر بطريقة سحرية خارقة غامضة الاسباب ! ودون أي اعتبار لطبيعة البشر ، ولطاقاتهم الفطرية ، ولواقعهم المادي ، في أية مرحلة من مراحل نموهم ، وفي أية بيئة من بيئاتهم .

وحين لايرون أنه يعمل بهذه الطريقة ، وحين يرون أن الطاقة البشرية المحدودة ، والواقع المادي للحياة الانسانية ، يتفلاعلان معه ، فيتأثران به ــ في فترات ــ تأثرا واضحا ، على حين أنهما في فترات أخرى يؤثران تأثيرا مضادا لاتجاهه، فتقعد بالناس شهواتهم وأطماعهم ، وضعفهم ونقصهم ، دون تلبية هتاف هذا الدين، أو الاتجاه معه في طريقه..

حين يرون هذا فانهم يصابون بخيبة أمل لم يكونوا يتوقعونها ــ مادام هذا الدين منزلا من عندالله ــ أو يصابون بخلخلة في ثقتهم بجدية المنهج الديني للحياة وواقعيته . أو يصابون بالشك في الدين اطلاقا !

وهذه السلسلة من الاخطاء تنشأ كلها من خطأ واحد أساسي : هو عدم ادراك هذا الدين وطريقته ، أو نسيان هذه الحقيقة الاولية البسيطة .

★ ★ ★

ان هذا الدين منهج الهي للحياة البشرية . يتم تحقيقه في حياة البشر بجهد البشر أنفسهم في حدودطاقتهم البشرية . وفي حدود الواقع المادي للحياة الانسانية في كل بيئة ، ويبدأ العمل من النقطة التي يكون البشر عندها حينما يتسلم مقاليدهم . ويسير بهم الى نهاية الطريق فيحدود طاقتهم البشرية ، وبقدر ما يبذلونه من هذه الطاقة .

وميزته الاساسية : أنه لايغفل الخطة ، في أية خطة وفي أية خطوة، عن فطرة الانسان وحدود طاقته ، وواقع حياته المادي أيضا . وأنه — في الوقت ذاته — يبلغ به — كما تحقق ذلك فعلا في بعض الفترات ، وكما يمكنان يتحققدائما كلما بذلت محاولة جادة — الى ما لم يبلغه أي منهج آخر من صنع البشر على الاطلاق . وفي يسر وراحة وطمأنينة واعتدال .

ولكن الخطأ كله — كما تقدم — ينشأ من عدم ادراك طبيعة هذا الدين أو من نسيانها . ومنانتظار الخوارق المجهولة الاسباب على يديه ... تلك الخوارق التي تبدل فطرة الانسان ، ولا تبالي بطاقاته المحدودة ، ولا تحفل بواقعه المادي البيئي !

أليس هو من عند الله ؟ أليس الله قادرا على كل شيء ؟ فلماذا اذن يعمل هذا الدين — فقط — في حدود الطاقة البشرية ؟ وتتأثر نتائج عمله بالضعف البشري ؟ بل لماذا يحتاج أصلا الى الجهد البشري ؟ ثم .. لماذا لاينتصر دائما ، ولا ينتصر أصحابهدائما ؟ لماذا تغلبثقلةالضعف والشهوات والواقع المادي على رفرفته وشفافيته وانطلاقه أحيانا ؟ ولماذا يغلبأهل الباطلعلى أصحابه — وهم أهل الحق — أحيانا !!

وكلها — كما ترى — أسئلة وشبهات ، تنبع ابتداء من عدم ادراك الحقيقة الاولية لطبيعة هذا الدين وطريقته أو من نسيانها !

★ ★ ★

ان الله قادر — طبعا — علىتبديل فطرة الانسان عن طريق هذا الدين أو عنغيرطريقه. ولكنه — سبحانه — شاء ان يخلق الانسان بهذه الفطرة لحكمةيعلمها. وشاء ان يجعل الهدى ثمرة للجهد والرغبة في الهدى : « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا » .. وشاء أن تعمل فطرة الانسان دائما ، ولا تمحى ولاتعطل: « ونفسوما سواها . فألهمهافجورها وتقواها . قد أفلح من زكاها . وقد خاب من دساها » .. وشاء أن يتم تحقيق منهجه الالهي للحياة البشرية عن طريق الجهد البشري ، وفي حدود الطاقة البشرية : « ان الله لايغيرمابقومحتىيغيروا ما بأنفسهم». « ولولا دفع الله الناس بعضهمببعض لفسدت الارض » . وشاء أن يبلغ الانسان من هذا كله بقدر ما يبذل منالجهد ، وما ينفقمنالطاقة ، وما يصبر على الابتلاء في تحقيق هذا المنهج الالهيالقويم، وفي دفع الفساد عن نفسه وعن الحياة من حوله :

« أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا: آمنا . وهم لايفتنون ؟ ولقد فتنا الذين من قبلهم ، فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين » ..

وليس لاحد من خلق الله أن يسأله — سبحانه — لماذا شاء هذا كله على هذا النحو الذي أراده فكان . ليس لأحد من خلقه أن يسأله — سبحانه — ما دام أن أحدا من خلقه ليس إلها ، وليس لديه العلم — ولا امكان العلم — بالنظام الكلي لهذا الكون . ومقتضيات هذا النظام في طبيعة كل كائن في هذا الوجود .

ولماذا ؟ — في هذا المقام — سؤال لا يسأله مؤمن جاد ، ولا يسأله ملحد جاد .. المؤمن لايسأله . لانه أكثر ادبا مع الله — الذي يعرفه بذاته وصفاته وخصائصه — وأكثر معرفة بطبيعة ادراكه البشري وحدوده ، وانه لم يهيأ للعمل في هذا المجال .. والملحد الجاد لايسأله ، لانه لايعترف بالله ابتداء. فان هو اعترف بألوهيته عرف معها أن هذا شأنه — سبحانه — ومقتضى الوهيته ، وانه : « لايسأل عما يفعل وهم يسألون » . لانه وحده المهيمن العليم بما يفعل .

ولكنه سؤال قد يسأله هازل مائع . لا هو مؤمن جاد ، ولا هو ملحد جاد. ومن ثم لايجوز الاحتفال به ، ولا أخذه مأخذ الجد .. وقد يسأله جاهل بحقيقة الالوهية وخصائصها . فالسبيل لتعليم هذا الجاهل ليس هو الاجابة المباشرة . انما هو تعريفه بحقيقة الالوهية وخصائصها .. حتى يعرفها ويسلم بها فهو مؤمن . أو يجحدها وينكرها فهو ملحد .. وبهذا ينتهي الجدل . الا أن يكون مراء ! والمسلم منهي عن المضي في الجدل حين يكون مراء !

والخلاصة التي ننتهي اليها من هذا الاستطراد في هذه الفقرة : هي أنه ليس لاحد من خلق الله أن يسأله — سبحانه — لماذا شاء أن يخلق « الانسان » بهذه الفطرة ؟ ولماذا شاء أن يبقي فطرته هذه عاملة لاتمحى ولا تعطل ولماذا شىء أن يجعل المنهج الالهي لحياته البشرية يتحقق عن طريق الجهد البشري ، وفي حدود الطاقة البشرية ، والواقع المادي لحياته ؟ ولم يشأ أن يجعله يتم بوسيلة خارقة ، وأسباب مبهمة غامضة !

ولكن لكل أحد من خلقه أن يدرك هذه الحقائق ويعرفها . ويراها وهي تعمل في واقع الحياة البشرية ويفسر أحداث التاريخ البشري على ضوئها فيفقه خط سيرها التاريخي من ناحية . ويعرف كيف يواجه هذا الخط ويوجهه من ناحيّة اخرى . ويعيش مع حكمة الله وقدره ، فينطبع بهما الانطباع الصحيح من ناحية ثالثة .

★ ★ ★

هذا المنهج الالهي ، الذي يمثله « الاسلام » في صورته النهائية ، كما جاء بها محمد صلى الله عليه وسلم، لايتحقق في الارض ، وفي دنيا الناس،

بمجرد تنزله من عند الله . لايتحقق بكلمة : « كـن » الالهية ، مباشرة لحظة تنزله . ولا يتحقق بمجرد ابلاغه للناس وبيانه . ولا يتحقق بالقهر الالهي على نحو ما يمضي ناموسه في دورة الفلك وسير الكواكب. انما يتحقق بأن تحمله جماعة من البشر . تؤمن به ايمانا كاملا ، وتستقيم عليه – بقدر طاقتها – وتجتهد لتحقيقه في قلوب الآخرين وفي حياتهم كذلك . وتجاهد لهذه الغاية بكل ماتملك .. تجاهد الضعف البشري والهوى البشري في داخل النفوس . وتجاهد الذين يدفعهم الضعف والهوى للوقوف في وجه الهدى .. وتبلغ – بعد ذلك كله – من تحقيق هذا المنهج الى الحدالذي تطيقه فطرة البشر ، والذي يهيئه لهم واقعهم المادي . على أن تبدأ بالبشر من النقطة التي هم فيها فعلا . ولا تغفل واقعهم ، ومقتضياته في سير وتتابع مراحل هذا النهج الالهي .. ثم تنتصر هذه الجماعة على نفسها وعلى نفوس الناس معها تارة . وتنهزم في المعركة مع نفسها أو مع نفوس الناس تارة ... بقدر ماتبذل من الجهد . وبقدر ماتتخذ من الوسائل المناسبة للزمان ولمقتضيات الاحوال . وقبل كل شيء .. بمقدار ما تمثل هي ذاتها من حقيقة هذا المنهج . ومن ترجمته ترجمة عملية في واقعها وسلوكها الذاتي .

★ ★ ★

هذه هي طبيعة هـذا الدين وطريقته . وهذه هي خطته الحركية ووسيلته .. وهذه هي الحقيقة التي شاء الله أن يعلمها للجماعة المسلمة وهو يقول لها : « ان الله لايغير مابقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » . « ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الارض » . « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا » ..

وهذه هي الحقيقة التي شاءالله أن يعلمها للجماعة المسلمة في غزوة أحد حينما قصرت في تمثيل حقيقة هذا الدين في ذوات أنفسها في بعض مواقف الغزوة . وحينما قصرت في اتخاذ الوسائل المناسبة في بعض مواقفها . وحينما غفلت عن هذه الحقيقة الاولية أو نسيتها . وفهمت أن مقتضى كونها مسلمة أن تنتصر حتما ! فقال لها الله سبحانه : « أولما أصابتكم مصيبة قد اصبتم مثليها قلتم أنى هذا ؟ قل : هو من عند أنفسكم » . وقال لها : « ولقد صدقكم الله وعده اذ تحسونهم باذنه ، حتى اذا فشلتم وتنازعتم في الامر وعصيتم من بعدما أراكم ماتحبون : منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة . ثم صرفكم عنهم ليبتليكم » ..

ولقد تعلمت الجماعة المسلمة هذه الحقيقة في هذه الغزوة ، لابالكلام ولا بالعتاب . ولكن تعلمتها مع هذا بالدماء وبالآلام . ودفعت ثمنها

غاليا : هزيمة بعد نصر . وخسارة بعد غنم . وجراحا لم تكد تدع أحدا معافى . وشهداء كراما فيهم سيد الشهداء حمزة - رضي الله عنه - وأغلى من ذلك كله وأشد وقعا على الجماعة المسلمة كلها : جرح رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وشج وجهه الكريم ، وكسر رباعيته في فمه، ووقوعه في الحفرة التي حفرها أبو عمرو الفاسق حليف قريش مكيدة للمسلمين . وجهد المشركين له - صلى الله عليه وسلم - وهم يطاردونه وهو مفرد في نفر من أصحابه استشهدواواحدا بعد واحد وهم يذودون عنه . ويترس أحدهم - ابو دجانه - بظهره عليه يقيه نبل المشركين ، والنبل يقع في ظهره فلا يتحرك .. حتى ثاب اليه المؤمنون من هزيمتهم وحيرتهم ، وهم يتلقون هذا الدرس الشاق المرير .

على انه من اللاحظ الواضح أن ترك المنهج الالهي للجهد البشري، يتولى تحقيقه في حدود الطاقة البشرية ، يصلح النفوس البشرية ، ويصلح الحياة البشرية .. نقول هذا لانعلل بهمشيئةالله - سبحانه - في جعل الامر على ماجعله . ولكن لنسجل - فقط - ملاحظة واقعية لآثار هذه المشيئة في حياة العباد .

ذلك أن حقيقة الايمان لايتم تمامها في قلب حتى يتعرض لمجاهدة هؤلاء الناس في أمر هذا الايمان . مجاهدتهم بالقلب بكراهة باطلهم وجاهليتهم والعزم على نقلهم منها الى الحق والاسلام . ومجاهدتهم باللسان بالتبليغ والبيان ، ورفض باطلهم الزائف ، وتقرير الحق الذي جاء به الاسلام . ومجاهدتهم باليد بالدفع والازالة من طريق الهدى حين يعترضونه بالقوة الباغية والبطش الغشوم !.. وحتى يتعرض في تلك المجاهدة للابتلاء والاذى ، والصبر على الابتلاء والاذى ، والصبر على الهزيمة والصبر على النصر أيضا - فالصبر على النصر أشق من الصبر على الهزيمة . ثم يثبت ولايرتاب . ويستقيم ولا يتلفت . ويمضي في طريق الايمان راشدا صاعدا .

حقيقة الايمان لايتم تمامها في قلب حتى يتعرض لمجاهدة الناس في أمر هذا الايمان لانه يجاهد نفسه كذلك في أثناء مجاهدته للناس . وتتفتح له في الايمان آفاق لم تكن لتتفتح له ابدا وهو قاعد آمن ساكن ، وتتبين له حقائق في الناس وفي الحياة لم تكن لتتبين له أبدا بغير هذه الوسيلة ويبلغ هو بنفسه وبمشاعره وتصوراته، وبعاداته وطباعه وانفعالاته واستجاباته ما لم يكن ليبلغه أبدا بدون هذه التجربة الشاقة العسيرة .

وهذا بعض ما يشير اليه قوله تعالى: « ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الارض » . وأول ما تفسد: فساد النفوس بالركود الذي تأسن معه الروح . وتسترخي معه الهمة ويتلفها الرخاء والطراوة . ثم تأسن الحياة كلها بالركود . أو بالحركة في مجال الشهوات وحدها . كمايقع

للامم حين تبتلى بالرخاء !

نهذه كذلك من الفطرة التي فطر الله الناس عليها . لقد جعل صلاح هذه الفطرة في المجاهدة لاقرار منهج الله للحياة البشرية ، عن طريق الجهد البشري ، وفي حدود الطاقة البشرية كذلك .

ثم ان المجاهدة وما يصاحبها من الابتلاء، هي الوسيلة العملية لتمحيص الصفوف ـ بعد تمحيص النفوس ـ ولتنقية الجماعة من المعطلين والمعوقين والمرجفين . ومن ضعاف النفوس والقلوب ، ومن المخادعين والمنافقين والمرائين ..

وهذه هي الحقيقة التي شاء الله أن يعامها للجماعة المسلمة وهي تتعرض للامتحان. وتتعرض للابتلاء. وتتكشف فيها خفايا النفوس . كما تتميز فيها الصفوف . تحت مطارق الابتلاء ومشقة التجربة . ومرارة الآلام .

وهذه هي الحقيقة التي شاء الله أن يعلمها للجماعة المسامة ، وهو يعقب على أحداث الغزوة. فيقول لها ، ردا على سؤال المسلمين : « أنى هذا؟» « قل: هو من عند أنفسكم »ثم يعقب على هذا بقوله : « وما أصابكم يوم التقى الجمعان فباذن الله . وليعلم المؤمنين وليعلم الذين نافقوا » .. « وما كان الله ليذر المؤمنين على ماأنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب» .. « وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لايحب الظالمين، وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين » ..

كل ذلك ليستقر في حسهم أنه مع أن ما أصابهم كان بسبب تقصيرهم في تمثيل حقيقة الايمان كاملة في مشاعرهم وتصرفاتهم في الغزوة .. فانه كذلك كان لخيرهم في النهاية بفضل الله عليهم ، وتجاوزه عن تقصيرهم ، واتخاذ نتائجه مادة لتعليمهم وتمحيصهم وتطهيرهم ، وتمييز صفوفهم .. وكله خير لانفسهم ولحياتهم في نهاية المطاف ..

ولا يتم تمام القول في طبيعة هذا الدين وطريقته ، حتى نضيف الى تلك الحقيقة التي نرجو أن نكون قد كشفنا عنها في هذا البيان .. تكملة ضرورية لها لابد من بيانها كذلك :

ان كون هذا المنهج الالهي متروك تحقيقه للجهد البشري في حدود الطاقة البشرية ، وفي حدود الواقع المادي للحياة الانسانية في شتى المدارج ، وشتى البيئات .. لايعني استقلال الانسان نهائيا بهذا الامر .

وانقطاعه عن قدر الله وتدبيره ، ومدده وعونه وتوفيقه وتيسيره .. فتصور الامر على هذا النحو مخالف في أصوله لطبيعة التصور الاسلامي.

ولقد بينا فيما سلف أن الله — سبحانه — يساعد من يجاهد للهدى: « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا » .. وأنه يغير حال الناس حين يغيرون ما بأنفسهم . وأنه لا يغير ما بهم حتى يغيروا ما بأنفسهم : « إن الله لا يغير مابقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » .

وهذان النصان يوضحان لنا — العلاقة بين الجهد البشري الذي يبذله الناس ، وعون الله ومدده الذي يسعفهم به . فيبلغون به مايجاهدون فيه من الخير والهدى والصلاح والفلاح .

فارادة الله هي الفاعلة في النهاية. وبدونها لايبلغ « الانسان » بذاته شيئا ، ولكن هذه الارادة تعين من يعرف طريقها ويستمد عونها ويجاهد في الله ليبلغ رضاه .

وقدر الله — مع ذلك كله — هو الذي يحيط بالناس والاحداث ، وهو الذي يتم وفقه ما يتم من ابتلاء. ومن خير يصيبه الناجحون في هذا الابتلاء .

وهذه هي الحقيقة التي شاء الله — سبحانه — أن يعلمها للجماعة المسلمة . وهو يبين لها في التعقيب على غزوة أحد أسباب النصر وأسباب الهزيمة — من عملها — ثم يكشف لها عن حكمة الله من وراء الابتلاء كله ، ومن وراء النصر والهزيمة : وعن تدبيره كذلك «ولقد صدقكم الله وعده اذ تحسونهم باذنه. حتى اذا فشلتم وتنازعتم في الامر، وعصيتم من بعد ما أراكم ماتحبون: منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة . ثم صرفكم عنهم ليبتليكم » وليعرفهم سنته الشاملة . ومردها في النهاية الى مشيئة الطليقة وقدره النافذ من وراء الاسباب والوقائع : « ان يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله . وتلك الايام نداولها بين الناس . وليعلم الله الذين آمنوا ، ويتخذ منكم شهداء . والله لايحب الظالمين . وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين » .

واذن فهو — في النهاية — تدبير الله ومشيئته وقدره ، ليتم مايريده من وراء الاسباب والاحداث ، وهو الامر الذي لايسأل عنه سبحانه : لانه شأنه الالهي ، الذي لايسأل عنه .. وهذه هي حقيقة الايمان الكبرى التي لايتم في النفس الا باستقرارها فيها ، واطمئنانها اليها.. وهي التكملة التي لابد منها لما قررناه في هذا الفصل عن طبيعة هذا الدين وطريقته .. بلا تعارض بين طرفي هذه الحقيقة في حس المسلم ، الذي يتذوق قلبه حقيقة هذا الدين ، كما أنزلها الله . ولا يعارضها بتصورات ومقررات ليست مستقاة من كتاب الله ...(١)

(١) من كتاب « هذا الدين »